

النجوم

للقصصى الفرنسى الفونس دوديه

عند ما كنت أرى الماشية على جبل (الليرون) كنت أقضى أسابيع طويلة لا أبصر فى خلالها مخلوقاً حياً غير كلبى (لابرى) وقطيعى فى المرعى ، وقسيس جبل (الاور) وبعض عمال (اليامون) مارين من هناك فى سيلهم ، تلك الجماعة التى أخرستها الوحدة وشغلتهما عن تسقط أخبار قرى الساحل ومدنه . ولهذا كنت أشعر بالسعادة تمر بى كلما سمعت رنين أجراس بغلنا — آتيا يحمل الى الزاد كل خمسة عشر يوماً — مرة مع أجيرنا ومرة مع عمى . فكنت ألتقى منهما أخبار البلد من تعميد وزواج وغير ذلك ، وأهتم خاصة بما آلت اليه ابنة سيدى الأنسة ستيفانيت ، هذه الأنسة التى فاقت أترابها بجمالها الفاتن ، وأستفهم بلباقة عما اذا كانت تكثر من حضور الحفلات العامة اوقضاء الليالى الراقصة ، وهل تقدم الى خطبتها أحد . كل ذلك كنت أقف عليه دون أن أتركى لحدثى سيلا يلحظ منه هذا الاهتمام البالغ ، ومن يسألنى الآن لماذا كانت تعينى هذه الأمور أجبه بأنى شاب فى العشرين من عمرى وان الأنسة ستيفانيت أجمل فتاة رأيتها فى حياتى وفى ذات مرة كنت أنتظر الزاد يوم الأحد فأخبر عن موعد وصوله ، فحملت ذلك فى الصباح على « حفلة القداس الكبير » وفى الظهر على ان الدابة لم تستطع متابعة سيرها لرداءة

الاعصاب فذهبت اعودها يوماً فلم أجد بالدار أحداً، سألت عنها مر تارة، وأخيراً علمت أنها فارقت الحياة امس مساء، سألت ماذا حل بها وأى أمر جديد اتابها؟ فعرفت انها لم تصب بشى جديد، وانما فارقت الحياة وكانها الشمعة تحترق . فارقتها شيئاً فشيئاً وقد لاقت ربها وعلى فهمها ابتسامة رضا وطمأنينة ، مر اذ ذاك بخاطرى قول الشاعر الامريكى برانيت ، ذلك القول الذى كانت تردده أثر كل فشل أو مصاب ، والذى ظلت تردده كثيراً فى آخر أيامها : « هكذا عش ، حتى اذا ما نادى منادى الموت لا تسر اليه كالعبد مسوقاً الى سجنه ، بل سر اليه بايمان ثابت ، وطمأنينة تامة كمن يسحب غطاءه عليه ليستسلم الى حلم عذب جميل . »

الطريق بعد هبوب العاصفة الشديدة ، وفى الساعة الثالثة بعد الظهر تماماً ، بينما الجو فى صفاء أديمه ، والجبل يرفل فى حلتة اللؤلؤية . وخرير المياه يشنف أذنى . سمعت رنيناً مطرباً كأنه رنين الناقوس فى عيد الفصح . فتحققت ان الدابة التى أنتظرها آتية . ولما تبينتها ملياً لم ار معها الا الاجير ولا العمة وانما رأيت عليها ... أتعرف من ! ... آنسدا ! نعم آنسنا ستيفانيت نفسها . فقد شاهدتها منتصبة على ظهر البغل بين السلال . موردة الوجنتين كأن نقاوة الهواء وطراوة الجو بعثتا فى وجهها الحياة .

وقبل أن تطأ قدماها الارض أخبرتنى أن الاجير المسكين مريض لا يغادر فراشه ، وأن عمى (نورا) غائبة منذ أيام عند أبنائها . ولما سألتها عن سبب ابطائها اجابت « انى ضللت الطريق » ولكن من يبصرها فى أبهى زينتها ، بشرطها الحريرى المغطى بالزهر ، وردائها اللباع المطرز الحواشى ، يحكم بأنها كانت تلهو بالرقص - لا بالتفتيش عن الطريق بين الادغال .

آه ما الطف هذه المخلوقة التى لم تملأ عيناى وما أجملها ! كنت بالامس أشاهدها أحياناً فى الشتاء وانا عائد فى المساء من الحظيرة الى المزرعة لاتناول طعامى ، فكانت تدخل غرفتها وهى فى زينتها وكبرياتها دون أن تكلم أحداً من الخدم ... حينئذ علمت أنى ما تأملتها من قبل فى مثل هذا القرب . وبعد أليست الآن واقفة أمامى فى هذه الخلوة التامة فلم لا أعانقها ؟

ولما أفرغت (ستيفانيت) السلال أخذت تتأمل كل ما حولها باهتمام ، ثم نزع ثوبها الفضفاض - الذى لا ترتديه الا أيام الآحاد - خوفاً عليه من التلف ، ودخلت المراح تريد ان تشاهد المكان الذى انام فيه ، وفراش القش المغطى بفرو الخروف ، ومعطف الضخم المعلق على الجدار ، وهراوق الغليظة ، وبندقى العتيقة . فكان فى هذه الاشياء مسلاة لها .

— اذن أنت تقضى أيامك فى هذا المكان أيها الراعى المسكين؟ لابد أن تكون قد مللت الحياة فى هذه الوحشة وتلك العزلة ! والا فقل لى ماذا تفعل ، وفيم تفكر ؟

فهممت بأن أجيبها : « انى أفكر فىك يا سيدى » كما هو الواقع ، ولكنى كنت فى حالة اضطراب شديد ، فلم أجد كلمة واحدة أقولها لها . ولما توسمت وجهها لاحظت أنها شعرت بما يحول فى خاطرى ، وكانى بها أرادت ان تزيد فى حيرتى وتلعمنى لتتلاذذ فى قرارة نفسها ، فقالت :

— وصديقتك العنزة الذهبية اللون ، هل تزورك أحياناً ؟ أنا لا أشك فى اخلاص هذه الشيطانة التى لا يلد لها الجرى الا على

ولكن ستيغانيت نفسها بوجهها الضحوك ، ورأسها المنحنى ،
واسراعها في العودة اسرعا كاد يجعل زيارتها اغماضة عين ، كانت
أشبه بهذه الشيطانة المذكورة .

— استودعك الله أيها الراعى .

— سلاما يا سيدتى .

ولم اتم جوابى حتى كانت في طريقها وليس معها غير سلاحها
الفارغة . ولما اختفت عن ناظرى في المنحدر خلعت ان الحجارة
المتناثرة من حوافر الدابة كانت تقع على قلبى واحدة بعد واحدة .
ومع أنها أصبحت بعيدة عنى فقد ظل صوت الحجارة المتناثرة
يسوى فى أذنى . وبقيت حتى ازف المساء كأنتى فى غفوة لا أتحرك
من مكانى خوفا من ان يتبدد هذا الحلم اللذيذ . ولم أصح الا على
صوت ينادينى من السفح . وكان الليل بدأ يرخى سدوله والقطيع
أخذ يزاحم بعضه بعضا ليدخل الحظيرة . وبينما انا أفتش عن مكان
الصوت ظهرت أمامى فجأة الأنسة ستيغانيت ، ولكن بغير
الهيئة التى قابلتني بها فى المرة الأولى . قابلتني وهى ترتجف من البرد
والخوف ، وأثوابها مبللة ، فعلبت حينئذ ان فيضان نهر (السورغ)
فى الوادى بعد تلك العاصفة الشديدة اخذ عليها الطريق ، فخافت
على نفسها ان هى اجتازته . والأغرب من ذلك انها ساعة
ودعنى ما كان يجب عليها أن تفكر فى الرجوع الى المزرعة ، وما
كان بإمكانى ان أترك القطيع وحده لأرافقها فى طريقها الوعر ،
ويظهر ان فكرة الإقامة هذه الليلة فى الجبل كانت تزعجها ولا
سيما عندما كانت تفكر فى قلق أهلها عليها . فكنت أهدى من
روعها واطمئن بالها بما أستطيع اليه سبيلا . واذكر أنى قلت لها ان
ليالى يوليو قصيرة ، وان السماء يصفو أدهمها بعد حين .

وأشعلت النار بسرعة وأخذت ادفى قدميها وأجفف أثوابها .
ثم قدمت البهاشيئا من الجبن والحليب . ولكنهم لم تكن لتفكر فى الدفء
ولا فى الأكل تلك الساعة ، واسترسلت فى النجيب حتى كدت ابكى
لبكاؤها .

ولما ارخى الليل سدوله تماما ولم يبق على قمة الجبل غير شعاع حائل
من الشمس ، والا قطفة من نور فى حواشى الافق ؛ أمسكت بيد
الآنسة وأدخلتها المراح لتستريح ، فتمددت على فروة ناعمة الصوف
كنت قد فرشتها على القش الطرى ، ثم خرجت من عندها لاجلس
لدى الباب متمنيا لها ليلة سعيدة . . .

ويشهد الله انى لم تخامرنى فكرة سيئة قط ، بالرغم من نار الحب
المتأججة فى دمي . ولكنى كنت فخورا جدا لأن فى زاوية من

المراح تنام فى حراستى ابنة سيدى - كأنها نعيمة أئمن من تلك النعاج التى
ترمقها بنظرات الاهتمام وأشد منها يياضا .
والحق يقال اننى لم أر السماء من قبل بمثل هذا الصفاء الذى
رأيتها به فى تلك الليلة . ولا النجوم بمثل هذا النور الساطع الذى
كانت ترسله . .

وفجأة فتح باب المراح : وظهرت منه ستيغانيت . فالغنى كانت
تزعجها بأصواتها فتمنع عنها لذة النوم . لذلك أحبت أن تأتى قرب
النار . ولما لاحظت منها ذلك وضعت معطفى على كتفيها وأرثت
النار ثم أدبتها منى . وبقينا مدة جالسين جنباً الى جنب لا نجد حديثا
نفتحه ولا حادثا نشرحه .

ويعلم الذين قضوا بضع ليال فى الفلوات ان عالما خفيا يهب من
سباته ساعة ينام الانسان فى هذا الانعزال التام والسكون العميق ،
فى هذه الساعة تستيقظ الطبيعة . فالينابيع تغنى بصوتها العذب . وترسل
المياه الراكدة بريق لآلئها السماوى . وتأخذ الاشباح تروح وتجيء ،
وترتفع فى الهواء أنغام خفية وأصوات كالحفيف ، وكأن الأغصان
أخذت تمتد والاعشاب تنمو . فالنهار يعطى الحياة للخلوقات الحية ،
أما الليل فيعطى الاشياء الميتة . وهذا مما يعرب الانسان إذا لم يكن
له به سابق عهد أو عادة . . ولهذا كانت الآنسة ترتجف أبداً من
الخوف ، وتلتصق بى كلما سمعت صوتا كأنها طفلة صغيرة .

وفى ذات مرة تعالت جلبة محزنة من المستنقع فى الوادى
وارتفعت اليها تموجاتها مع الأثير . ثم رأينا شهابا جميلا يهوى فوق
رأسينا من عل ويتجه نحو ذلك المستنقع كأن الضجة التى كرهنا
سماعها تحمل معها بارقة خير . فسألتنى ستيغانيت :
- ماذى جرى ؟

— نفس دخلت الجنة ياسيدتى .

فرسمنا الصليب على صدرنا ثلاثا وبقيت هى تنظر الى السماء
بنفس مطمئنة ، ثم قالت :

— أصحيح ما يقال عنكم معشر الرعاة انكم سحرة ؟

— لا ياسيدتى ، إنما نحن أقرب هنا الى النجوم من سكان
السهل ، ولذلك فتحن أكثر منهم علما بما يجرى فيها .

ثم وضعت يدها على فودها وقالت :

— ما أكثر هذه النجوم وما أجملها ! أنا فى حياتى ما رأيت
هذا المنظر هل تعرف أسماءها أيها الراعى ؟

— نعم أيتها الآنسة أنظرى ! فوق رأسينا تماما ترين
« طريق سان جاك » (المجرة) الممتدة من فرنسا الى اسبانيا ،
تلك الطريق التى اختطها (سان جاك دى غاليس) لبرى الفاتح
العظيم (شارلمان) سبيله عند ما كان يحارب « العرب » وعلى

بلياس ومليزاند

للفيلسوف البلجيكي موريس ماترلنك

ترجمة الدكتور حسن صادق

(تابع)

اركل — من القادم؟

جنيفيف — انه بلياس وفي عينيه أثر البكاء

اركل — هذا أنت يا بلياس؟ اقرب منى حتى أراك في النور
بلياس — تسلمت يا جدى رسالة من صديقى مارسيلوس في
الوقت الذى تسلمت فيه كتاب أخى... إن هذا الصديق العزيز
على يعانى ألم الاحتضار. وهو يستقدمنى إليه ليرانى قبل أن يفارق
العاجلة. ويقول فى رسالته إنه يعرف بالدقة اللحظة التى سيموت
فيها، وإنى أستطيع الوصول إليه قبل حلول تلك اللحظة إذا شئت.
إنى ذاهب إليه فى الحال.

اركل — يجب عليك أن تنتظر قليلا، على الرغم من ذلك
إننا لاندري ماذا تعدد لنا عودة أخيك. ثم هل نسيت أن أبالك ملقى
على فراشه فى الغرفة التى فوقنا، وقد شفه الداء وبراہ السقم؟
أليس من الجائز أن يكون أشد مرضا من صديقك؟ ومن أولى
برعايتك وعطفك، الوالد أم الصديق؟ (يخرج)
جنيفيف — لاتنس أن تشعل المصباح الليلة يا بلياس

«يخرجان متفرقين»

المنظر الثالث

(أمام القصر. تدخل جنيفيف ومليزاند)

مليزاند — ماهذا السكون المعتم الذى يخيم على الرياض؟
إنه يدخل على النفس الرهبة والاكتئاب! وهاهذه الغابات الكثيفة
الجائمة حول القصر؟!

جنيفيف — لما ووطئت هذا المكان أثار هذا المنظر العجب
فى نفسى وأخذ منها مأخذا شديدا. إنه رائع مخوف يفرق كل من
رآه فى التأمل العميق. توجد أمكنة لا يرى الانسان فيها نور الشمس
ولا ضوء القمر، فاذا ما طال مقامه بها ألفها واطمأن اليها...
قضيت فى هذا القصر الموحش أربعين عاما أو تزيد قليلا...
لونظرت إلى الناحية الأخرى لرأيت نورا ينبعث من ماء البحر

مليزاند — أسمع حركة قريبة منا

جنيفيف — نعم. أحد الناس يسير نحونا... آه! إنه بلياس...

مسافة منها ترين محفة الأرواح (بنات نعش الكبرى) بأقطابها
الأربعة الساطعة. وعلى مقربة منها «الحيوانات الثلاثة». والنجم
الصغير المقابل للثلاثة هو «السائق»؛ وانظري من حولها هذه
النجوم الهاوية، إنها النفوس التى لم يقبلها الخالق فى جنته...
وتحتها بقليل ترين «المشط» أو «الملوك الثلاثة» (الجوزاء)
التي نستعين بها على معرفة الوقت. فيكفى ان القى عليها نظرة
واحدة لاتأكد أن نصف الليل قد انقضى. وعلى مسافة منها للجنوب
يلعب «جان دى ميلان» سراج الكواكب كلها (الشعرى اليمانية)
واليك الحكاية التى يروها الرعاة عنها:

فى ذات ليلة دعيت الشعرى اليمانية و «الملوك الثلاثة» والثريا
الى حفلة زواج احدى صديقاتها النجوم. فتقدمت الثريا رفيقتها
وانطلقت حتى استقرت فى أعالي طبقات الجو كما ترينها؛ ولحق بها
«الملوك الثلاثة» بطريق أدنى؛ أما الكسول «جان دى ميلان»
فقد أخره نومه عن اللحاق بها، فاغناظ ورماها بعصاه ليقفها فى
مكانها. ولهذا يطلقون أحيانا اسم «جان دى ميلان» على «الملوك
الثلاثة».

ولكن أجمل النجوم وأكبرها قدرا «نجمة الراعى» التى تير
لنا الطريق فى الفجر عند ما نخرج بالماشية الى المرعى، وفى المساء
عند ما نعود بها الى الحظيرة. ونسميها أيضا «ماغلون» وهى
الجميلة التى تمشى دائما لئلا يبردى برؤفانس «(زحل) لتتزوج
به كل سبع سنوات مرة واحدة.

— ماذا تقول! وهل من زواج عند النجوم؟

— نعم أيتها الآنسه

ولما أخذت أشرح لها محور هذا الزواج احسست بشيء ناعم
يثقل على كتفى فى لطف ورقة؛ فنظرت فأذا برأسها الناعس متكئا
على، واذا بشرائطه الخيرية وتخاريمه اللطيفة وشعره المجعد تكبى
الى ان بدأت الكواكب تصفر فى سماءها، وأخذ ضوء الفجر ينبثق
فى الافق البعيد ليمحو أثرها. اما انا فكنت أتأمل الفتاة النائمة
بشيء من الحزن الخفيف. لا أفكر فى هدأة الليل وصفائه إلا بكل
ما هو جميل وشريف. وعلى جوانبنا تتابع النجوم سيرها ببطء
وسكوت كأنها قطع من الغنم. وبين الفينة والفينة كنت أشعر
ان أطف وأجمل نجمة كانت قد أضلت الطريق فهبطت الى كتفى
فنامت عليه بهدوء....

كيفون (لبنان) محمد كرم